

المحاضرة الثالثة:

مظاهر التواصل الحضاري بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء:

1- الدور الحضاري للقوافل التجارية: لقد أدت القوافل التجارية بين الجزائر ومنطقة جنوب الصحراء دورا حضاريا هاما ويؤكد هذا الدور الباحث عبد الجليل التميمي بقوله "... فلا غرو إذن اليوم إن قلنا بأن التبادل التجاري كان أحد الروافد الأساسية التي عممت وجذرت هذا الارتباط العضوي للصلات التجارية بين شعوب الصحراء وشمال إفريقيا، وهو التبادل الذي لم يتح لغيرهم بهذه الأهمية والحجم" وللقوافل التجارية عدة تأثيرات نذكر منها:

التأثير الاقتصادي:

كانت القوافل التجارية الجزائرية تغدو وتروح بين موانئ الشمال وأسواق واحات أعماق الصحراء الكبرى ببلاد السودان الغربي، وكان مرحب بها عند عودتها وهي محملة بتبر الذهب وريش النعام، والعبيد وغيرها من المنتجات والبضائع، وكان الأمراء أيام مملكة سنغاي يستقبلون التجار بحفاوة ويهيئون لهم الأمن ويستدعونهم لحفلاتهم ويستقبلونهم في بلاطهم، ذلك كله نظير الأهمية الاقتصادية التي كانت تنتج عن مجيئ التجار بأعداد كبيرة إلى سنغاي ومختلف المراكز التجارية الأخرى.

إن هذا الاستبشار بقدم القوافل التجارية تواصل عبر الزمن حتى منتصف القرن التاسع عشر، والدليل ما ذكره الكاتب الفرنسي مياج Miège على تلهف السكان في الشمال لوصول القوافل الكبرى من الجنوب محملة بمختلف السلع والبضائع.

ويظهر التأثير البارز للقافلة التجارية اقتصاديا على سكان إفريقيا جنوب الصحراء في العصور الوسطى والحديثة كون ازدهار وتطور الممالك الإفريقية عموما كان قائما إلى حد كبير على التجارة مع بلدان المغرب ومنها بالخصوص الجزائر، ويتضح ذلك بشكل جلي في سلطان مملكة البرنو عام 1440م حينما بعث برسالة إلى علماء وفقهاء توات يشتكي فيها أن التجار لم يعودوا بقصدون بلاده بأعداد كبيرة كما كانوا يفعلون في السابق، وكانت هذه الفترة من فترات ازدهار التجارة بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء.

وكان تجار القوافل والمشرفين عليها هم المساهمين الأساسيين في حفر الآبار على أطراف معظم شبكات تنقلهم، وذلك للتزود بالمياه الصالحة للشرب التي يحتاجونها انطلاقا من الجزائر وبلدان المغرب حتى سواحل إفريقيا الغربية، وقد أثرت عملية حفر الآبار هذه مع مرور الوقت على مظاهر عديدة منها استقرار بعض القبائل حولها، أدى فيما بعد إلى تكوين الواحات التي نجدها منتشرة في أغلب مسالك القوافل التجارية، حيث لا يُشك في

رعاية بعض تجارها للنخيل وغيرها من الأنشطة الزراعية، ونظرا لاحتياج القوافل إلى أماكن للإقامة ومحطات للاستراحة بعد كل مرحلة كان من الطبيعي أن تتوطد العلاقة الاجتماعية بين التجار وسكان تلك الواحات.

لذلك كانت القوافل التجارية عاملا مهما لا في زيادة العمران في الصحراء فحسب؛ بل أيضا في تحسين ظروف المعيشة والاتصال والتبادل الثقافي والاجتماعي والتجاري بين مختلف أطراف الصحراء، وبينها وبين مناطق الشمال.

ومن جهتها القوافل التجارية وفرت لبلدان شمال إفريقيا وبالتحديد الجزائر ومدنها كل أسباب النمو والتطور الاقتصادي والاجتماعي على حد سواء، وقد لاحظنا كيف اهتم سكان شمال إفريقيا أفرادا وجماعات بالتجارة وغامروا في المشاركة في قوافلها نظرا لما تدر عليهم من فوائد، أقلها تحسين مستوى المعيشة وتحقيق الأمن الغذائي وغير ذلك من النتائج، وفوق ذلك ساهمت تجارة القوافل في تطوير الاقتصاد الجزائري بتوفير رؤوس أموال خصوصا من مادة الذهب والتبر وقوافل الرقيق الذين كانوا يستغلون في الخدمات والأعمال الكبرى، مما انعكس إيجابا على نمو وتطور الحرف وظهور مختلف الصناعات، ووفرة الإنتاج الزراعي وغيرها.

التأثير الاجتماعي: كانت القوافل التجارية الجزائرية تحمل إلى أسواق دول إفريقيا جنوب الصحراء بضائع أغلب مصدرها بلدان المغرب الكبير عامة والجزائر خاصة، وكانت هذه البضائع من الأهمية بحيث ينتج عن ورودها فوائد كثيرة على الأفارقة منها تنشيط التجارة الداخلية وتغذية الجبايات الحكومية، المساهمة في توفير مجال التشغيل، ترقية الذوق العام للاستهلاك، المساعدة على إشاعة ظاهرة الأناقة في اللباس خاصة بين الطبقات الميسورة الحال.

كما ساهمت تجارة القوافل على زيادة التعرف على أهل السودان وطبيعة خلقهم، مما فتح فرصة لكثير من الأسر والجاليات للتوجه نحو الجنوب والاستقرار بها، أصبح لهم مع مرور الوقت شأن كبير بين الأفارقة، نذكر على سبيل المثال، أسرة آل أقيت، أسرة المقرئ، وغيرها من الأسر التي فضلت التوجه نحو الضفة الجنوبية للاستقرار، أثرت إيجابا في المجتمعات الإفريقية بسلوكياتها ونمط عيشها، وتحكمها في التجارة، حيث راحت أسرة المقرئ مثلا تؤسس شركة تجارية تنتقل بين الشمال والجنوب وتتحكم في تجارة كثير من السلع بالمنطقة.